الإسلام من خـــلال بعض دراسات المستشرقيـن خلال القرن العشرين: البلاد التونسية نموذجا

Islam According to Some Orientalist Studies during the Twentieth Century: The Tunisian Context as a Model

فتحية بلحاج ♦ جامعة تونس ، fathiabelhaj27@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2025/03/11 **تاريخ القبول: 2025/06/28** **تاريخ النشر: 2025/06/30**

الملخص باللّغة العربية: يشكّل موضوع الإسلام مجالاً مركزياً في دراسات المستشرقين ، حيث لم يبدأ هذا الاهتمام في القرن التاسع عشر كما قد يُعتقد ، بل يمتد تاريخه إلى مراحل أقدم تتعلق بالامتداد الإسلامي على الجغرافيا المسيحية. تزايد الجدل حول الإسلام خلال الحروب الصليبية ، ثم تطور الاهتمام في عصر النهضة لفهم الحضارات الأجنبية ، خاصة مع صعود الإمبراطورية العثمانية كقوة عسكرية تنافس أوروبا. ومع ذلك ، فإن التحول الجوهري تم في القرن التاسع عشر حين أصبح ميدان الدراسات الإسلامية اختصاصاً مستقلاً بذاته.

إنّ التقدم والتطور الحاصل في مجال البحث الإستشراقي ما كان له أن ينجح لولا التقدّم الحاصل في الدراسات الأكاديمية المتعلقة باللغات الكلاسيكية القديمة ومنها العربية.

جُوبهت هذه الدراسات المرتبطة بالمد الاستعماري بالنقد لأنها ركزت على محاور دون أخرى وعلى فترات ومواضيع دون غيرها. وهذا النقد بقدر ما وجه من المفكرين العرب المسلمين بقدر ما جاء من داخل العلماء المستشرقين أنفسهم. هذا ما حصل مع الباحثين والمستشرقين الدارسين لمنطقة المغرب العربي وتحديدا البلاد التونسية ، حيث كان التناول والبحث فيه الكثير من الجدة والخصوصية باعتبار عامل القرب من أوروبا ، ومعرفتهم بجغرافية وتاريخ المنطقة ،فبين البلد الذي شهد الحملة الصليبية التاسعة ، وقد ظلّ فيها الحضور المسيحي قائما لما يزيد عن خمسة قرون بالبلاد التونسية هو الذي جعل من الباحثين والمستشرقين مثل مدينا وغوتييي وبرانشفيك يحيطون هذه المسألة بالدرس والاهتمام.

الكلمات المفتاحية: الإسلام ؛ البلاد التونسية ؛ القرن العشرين ، تطور الإستشراق ؛ الدّراسات الإستشراقية.

♦ **المؤلف المرسل**

Abstract: The subject of Islam constitutes a central domain in Orientalist studies, and this interest did not begin in the nineteenth century as might be assumed; rather, its history extends to earlier phases related to the Islamic expansion into Christian geography. The debate surrounding Islam intensified during the Crusades, followed by a growing interest in the Renaissance era to understand foreign civilizations, especially with the rise of the Ottoman Empire as a military power competing with Europe. Nevertheless, the fundamental transformation occurred in the nineteenth century when the field of Islamic studies became an independent discipline in its own right.

The progress and development attained in the field of Orientalist research would not have succeeded without the advancements in academic studies related to ancient classical languages, including Arabic.

These studies, associated with the colonial expansion, faced criticism because they focused on certain axes to the exclusion of others and on specific periods and topics rather than a broader spectrum. This criticism came not only from Arab Muslim intellectuals but also from within the ranks of Orientalist scholars themselves. This was the case with researchers and Orientalists studying the Maghreb region, specifically Tunisia, where the approach and investigation exhibited much novelty and particularity due to the factor of proximity to Europe and their knowledge of the geography and history of the area. Tunisia, having witnessed the Ninth Crusade and maintained a Christian presence for more than five centuries, is what led researchers and Orientalists such as Medina, Gautier, and Pranchfec to surround this matter with rigorous study and attention.

Keywords: Islam; Tunisia; Twentieth century; Development of Orientalism; Oriental studies.

مقدمـــــة:

يُعَدّ الحديث عن الإسلام من قِبَل المستشرقين مجالًا بارزًا وأساسيًا من مجالات المعرفة التي اهتم بها هؤلاء. ويُمثّل الاستشراق ميدانا من المعرفة الغربية حول الشرق ، حضارةً وثقافةً وعقائدَ ، وهو نتاج جهود مختصين ودّارسين أوروبيين في اختصاص التاريخ واللغات والأديان المقارنة. وبما أن دراسة الأديان ومقارنتها تقع ضمن دائرة اهتمام علم الاستشراق ، فإنّ هذه الدائرة تُعتبر مركزية في هذا المجال ، "إلى حدٍّ أصبح فيه معنى

الاستشراق يُطابق معنى الدراسات العربية الإسلامية" ، التي أنجزها الباحثون الغربيون منذ أكثر من قرنين.

وعلى الرغم من أن هذا المجال قد حظي برعاية معرفية ومؤسسية مكّنته من إبراز عديد الباحثين المهتمين بهذه المسألة مثل برنارد لويس (Bernard Lewis) ، ماكسيم رودنسون (Maxime Rodinson) ، فرانسيسكو غابريالي (Francesco Gabrieli) ، وليون كايتاني (Leone Caetani) ، فإنّ العديد من الباحثين الآخرين ظلّت آراؤهم ومواقفهم مغمورة وغير متداولة على نطاق واسع على غرار غابريال مدنا (Gabriel Medina) وروبار برانشفيك (Robert Brunschwig). وقد اعتمد هؤلاء على معطيات ووثائق ومقاربات مختلفة ، وهو ما ستُحاول هذه الورقة البحثية تسليط الضوء عليه. وسيتناول هذا العمل الباحثين الذين اختلفت مشاربهم المعرفية ، لكن كان لهم رأي بخصوص الإسلام وانتشاره بشكل عام ، وفي منطقة المغرب العربي أثناء الفترة الاستعمارية بشكل خاص ، مع العلم أن هؤلاء الباحثين كانوا موجودين في البلاد التونسية وبلدان المغرب العربي أثناء فترة الاحتلال.

يهدف البحث إذن إلى تقديم تناول آخر لموضوع الاسلام من قبل دارسين ومؤرخين غير متداولين بكثرة على صعيد الدراسات الاستشراقية ،محاولة لرسم صورة تقريبيّة للاتجاهات المختلفة في تناول موضوع الإسلام وانتشاره والتقاطعات الموجودة بين مجمل البحوث الإنسانيّة وتتبع الظروف والسياقات التاريخية التي أنتجتها.

كيف درس هؤلاء ،المعروفون منهم وغير المعروفين الإسلام وكيفية انتشاره في المنطقة ؟

1-بدايات إهتمام المستشرقين بالإسلام

يمكن القول إن اهتمام الغرب بالإسلام ليس ظاهرة حديثة ، بل يعود إلى عصور تاريخية بعيدة. فقد شهدت العلاقات بين الحضارتين الإسلامية والغربية فترات من التفاعل الثقافي والفكري والسياسي امتدت عبر القرون. هذا الاهتمام تعكسه الدراسات الأكاديمية ، والترجمات ، والتبادل التجاري ، والرحلات الاستكشافية التي ساهمت في تعزيز الفهم المتبادل ودراسة الإسلام بشكل معمق.

يُبيّن برنار لويس خضوع المسيحية للإصلاح الدَيني ، فيما لم يخضع الإسلام إلى مثل هذه التجربة وبقي الديني ، متلازما مع الدنيوي "لا الإسلام ولا المسيحية ، على استعداد للتعرّف في إحداهما على بديل مقبول للآخر."[1]

على أنّ بعض الألفاظ ، وبعض التسميات تعكس وجهة النظر هذه ، فقد اعتبرت أوروبا

(1) BERNARD Lewis, *Europe –Islam: Actions et réactions*, Paris, Gallimard, 1992, p 18.

بدار الكفر وأوروبا الصليبية ، مقابل دار الإسلام ، فهذه العبارات تدل على العداء المستحكم بين الإسلام وأوروبا المسيحية ، وقد بقيت الثوابت نفسها متحكمة في هذه العلاقة ، والتي تعود للمتخيل وللصورة النمطية التي تشكلت في القرون الوسطى وتحديدا أثناء الحروب الصليبية.

فهناك البدايات الأولى التي قامت بها أوروبا المسيحية من أجل تعلم العربية وفهم الإسلام ، وكان ذلك في القرن الثامن ميلادي مع اكتساح المد الإسلامي للمجال الجغرافي المسيحي ، مثل العالم البيزنطي " فكانت الجدالات أللاهوتية البيزنطية مع الإسلام وردود المتكلمين عليها أُولى أشكال ذلك الاهتمام الذي تزايد مع نفوذ المسلمين في العالم المسيحي مثل الحضور العربي بالأندلس."[2]

كان العلماء والطلاّب الغربيّون يأتون أولا إلى الشرق باعتبارهم مبتدئين يتجوّلون في إسبانيا وصقلية ، ثمّ بشكل أقلّ إلى البلدان الإسلامية الأخرى ، كان العلماء والطلاب يرحلون إلى العالم الإسلامي للدراسة والاستفادة من الحضارة المتقدمة آنذاك ، حيث كانت الحضارة الإسلامية مركزاً للعلم والمعرفة. وكان العرب يشغلون دور الوسطاء بين الحضارات ، ممّا جعل الفكر الأوروبي مديناً لهم بالكثير من العلوم والفلسفات التي نقلوها وأسهموا في تطويرها".[3]

وقد بذلت أوروبا المسيحية خلال هذه الفترة جهودا لتعلَم اللَغة العربية والقرآن في محاولة منها ليعتنق المسلمون المسيحية ، وقد نتج عن هذه الفترة كتابات جدالية أو هجومية تحمل بعض الأفكار المسبقة "علما أنّ بعض المستعربين الغربيين من الجيل الأول كانوا لاهوتيين."[4]

أثارت الحروب الصليبية في المشرق العربي نقاشًا عميقًا حول الإسلام ، وأسهمت في إثراء الأدبيات التاريخية المتعلقة بتلك الحروب من حيث الأحداث والأهداف والنتائج والسياقات التاريخية التي اكتنفتها.

يُبيّن عالم الاجتماع التونسي الطاهر لبيب: " وما يدعو إلى التوقف عند الحروب الصليبية سببان على الأقل ، الأول أنّها كانت منعطفا تاريخيًا في العلاقة بين الشرق الإسلامي والغربي ، والثاني أنّ الذاكرة الجماعية لم تتوقف حتى اليوم عن استحضارها في

---

(2) بلقزيز عبد الإله ، " نقد الثقافة الغربية: في الاستشراق والمركزية الأوروبية" ، مراجعة: محمد مصطفى القباج ، بيروت ،مركز دراسات الوحدة العربية ، 2017.

(3) برنار لويس ، "حالة الدراسات المتعلقة بالشرق الأوسط" ، ضمن كتاب "الإستشراق بين دعاته ومعارضيه" ، ترجمة وإعداد هاشم صالح ، بيروت ، دار الساقي ، ط .1 ، 1994 ، ص 131.

(4) برنار لويس ، مرجع سابق ، ص 132 .

الأزمات والمواجهات كمرجعية للعداء الغربي ولإمكانات مقاومته في آن واحد وهذا الإستحضار للذاكرة (الحروب الصليبية) فإنّ الخطاب السياسي والديني أعطى بعض الإنطباع بأن الحرب الصليبية لا تزال متواصلة إلى اليوم بأشكال مختلفة... وغالبا ما أعطى الإنطباع بأن نشأة الصور المتبادلة بين وسطاء مسلمي الشرق ومسيحي الغرب تعود إلى الفترة الصليبية حصرا وتحديدا."[5]

إنّ المنعطف في الحروب الصليبية حاولت أن تُظهر صورة الغالب الغربي المسيحي الذي بإمكانه مهاجمة المسلمين في أرضهم.

وقد أشار المستشرق فرنسيسكو غابريلّي في تقديمه لنصوص عربية حول الصليبيين إلى أن المؤرخين وأكثرهم من القرنين الثاني عشر والثالث عشر ميلادي ، أدرجوا الأحداث في تاريخ عام للعالم الإسلامي ، وأنهم وصفوا المسلمين وقادتهم أكثر مما وصفوا الصليبيين."[6]

يُشير ماكسيم رودنسون[7] أنّ " الحروب الصليبية ، ليست هي المسؤولة الوحيدة عن تشكّل الصورة داخل الكتابات بقدر ما كانت الوحدة الإيديولوجية للعالم المسيحي اللاتيني التي تكونت ببطيء ، والتي أفضت في آن واحد لتدقيق وجه العدَو."[8]

ثم جاء عصر النهضة ودشّن مرحلة جديدة فيما يتعلّق بالدراسات حول الإسلام بالنسبة للأوروبيين ، فقد كانت هناك موجة لمعرفة الحضارات الأجنبية وفهمها بما فيها الحضارات التي سبقتها ، أي الحضارات التي تُدين لها بشيء ما ، فأوروبا درست اللاتينية والإغريقية والإسلام ، وقد مثل هذا الفضول شيئًا جديدا ومختلفا كليًا لما سبق. وقد ساعد على إ شباع هذا الفضول المعرفي رحلات الاستكشاف التي قادت الأوروبيين إلى أراضي جديدة فيما وراء المحيطات. لقد ساعدت هذه الرّحلات على كسر القوالب الثقافية الجامدة وقدمت في آن معا الحافز والمناسبة الملائمة للانخراط في دراسات أكثر عمقا كما أن النهضة قدّمت أيضا بواسطة تجدّد المعارف والفيلولوجيا الكلاسيكية والنماذج والمناهج الجديدة من أجل دراسة الشرق ، فالتقنيات الفيلولوجية التي بلورها الإنسيون الأوروبيون ، من أجل

---

(5) لبيب طاهر ، صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط.2 ، 2008 ، ص 222.

(6) لبيب طاهر ، مرجع سابق ، ص 224.

(7) ماكسيم رودنسون Maxime Rodinson ، ولد بمرسيليا في فرنسا سنة 1914 وتوفي سنة 2004. وهو من أهم المستشرقين الفرنسيين الذين اهتموا بالدارسات العربية الإسلامية القديمة منها والمعاصرة. الموسوعة العربية ، الآداب اللاتينية ، أعلام ومشاهير ، المجلد 10 ، دمشق ، 2004 ، ص 49.

(8) لبيب طاهر ، مرجع سابق ، ص 222.

دراسة النصوص اللاَتينية والإغريقية والعبرية (أي الكلاسيكيات الأوروبية والنصوص المقدسة للمسيحية الأوروبية)، طُبّقت أيضا على العربية والنصوص العربية ، وكان ذلك يمثّل بداية علم جديد ومنهج فكري جديد وراحوا يدعون بالمستشرق ممثل هذا العلم الجيد قياسا بأسلافه من المختصين باللاتينية والإغريقية.[9]

كما ساعد الإصلاح الديني الذي حصل داخل الكنيسة المسيحية ، على مزيد العناية بالدراسات العربية الإسلامية ، وهذه المعرفة كانت مهمة بالنسبة إليهم من أجل القيام بعملية المقارنة.

ولا ننسى ظهور الإمبراطورية العثمانية كقوة عسكرية منافسة للقوى الأوروبية التقليدية خلال هذه الفترة من العوامل التي ساعدت على القيام بهذه الدراسات التي أصبحت أكثر من ضرورة. يُبيّن برنارد لويس (Bernard Lewis) أنّ " من هنا نتجت تلك الكمية الضخمة من الأدبيات التي كان مؤلفوها يخضعون لبعض الإكراهات والأوامر وكان أهمها الضرورات العلمية والعسكرية والتجارية. وكان هؤلاء المؤلفون عبارة عن مغامرين وتجار ودبلوماسيين وجواسيس ورحَالة ومُبشرين ، يصفون ما رأوه لكي يُثقفوا قرَاءهم ويقدمون المعلومات لأرباب عملهم وزملائهم ".[10]

كما عرفت هذه الدراسات المتعلقة بالإسلام وبالعالم الإسلامي في الغرب تطورا مع عصر الأنوار ، حيث أصبحت آفاق البحث العلمي تتسع ، كما برزت أفكار جديدة من بينها وأهمها مناهضة التعصب الديني ، " فراحوا يُترجمون النصوص الدينية ليس فقط إلى اللاَتينية كما كانوا قد فعلوا حتى الآن وإنما أيضا إلى اللَغات القومية الدينية".[11]

وصارت المعرفة بالحضارة العربية الإسلامية تدخل بشكل أوسع لدى المهتمين من الأوروبيين. لكن التحوَل الحقيقي والفعلي والذي حوَل الدراسات الأوروبية حول الإسلام والعالم الإسلامي إلى ميدان معرفي ، تلك التي شهدها القرن التاسع عشر " لقد حقق هذا القرن تقدَما كبيرا في مجال تنظيم الدراسات. ..بصفتها اختصاصا علميا وذلك عن طريق إنشاء مؤسسات متخصصة من مدارس ومعاهد وكليات للدراسات الشرقية... وبدءا من 1873 أخذت تُعقد أيضا مؤتمرات دولية للمستشرقين يلتقي فيها علماء من مختلف البلدان."[12]

غير أنّ هذا التحوَل الذي حصل مع القرن التاسع عشر لا يمكن أن يجعلنا نغض الطرف عن مسألة مهمة جدًا وهي تزايد اهتمام القوى الأوروبية العظمى وخاصة فرنسا وأنقلترا ،

---

(9) برنارد لويس ، مرجع سابق ، ص 134.

(10) المرجع نفسه ، ص 134.

(11) برنارد لويس ، مرجع سابق ،ص 135 .

(12) المرجع نفسه ، ص 137 .

حيث انخرطت بشكل فعلي في المنطقة وسيطرت على عديد المواقع والبلدان، هذه الامبراطوريات الأوروبية الكبرى راحت تُمارس نفوذها، فكان لزاما عليهم تلبية حاجيات الإمبراطوريات فكلفوا مجموعة أفراد كانوا قادرين على تكلَم اللَغات الشرقية وعارفين بالشؤون المحلية، ولهذا السبب راحوا يهتمون بتدريس هذه اللّغة[13].

هذا المسار التاريخي الذي أتينا على أهمّ مراحله أبرز مسألة مهمة وهي ضرورة دراسة اللغات وخاصة منها العربية.

2-إتقان اللّغة العربية كمفتاح لنجاح الدراسات الإسلامية

إذا كان المد الاستعماري والبعثات التبشيرية، والمصالح التجارية قد ساهمت بشكل أو بآخر بالاهتمام بالدراسات الإسلامية فإنها لم تكن الأكثر حرفية، بل أن الدراسات الأكاديمية كانت هي اللافتة وهي المؤسسة لعديد الميادين المعرفية.

فمن العوامل التي ساعدت على أن تُحرز الدراسات الإسلامية خلال القرن التاسع عشر تقدما كبيرا، هو التطور السريع الي شهده البحث العلمي في مجال العلوم الإنسانية وهو تطور متساوي مع تقدَم البحث العلمي في كافة المجالات وفي هذه الدائرة كما في غيرها يمكننا أن نلاحظ تضاعف شبكات مؤسسات البحث والتعليم وتخصصها، هذا بالإضافة إلى المطمح الهادف إلى مزيد الدقَة والموضوعية في البحث العلمي[14].

لقد كانت أكثر العلوم الإنسانية تبلورا، علم اللَغات، وربما كان العلم الأهم هو علم الفيلولوجيا (فقه اللّغة) الذي شهد مداه في ألمانيا، فقد مثل القرن التاسع عشر العصر الذهبي لهذا العلم، حيث حصل تقدما في دراسة العلوم العربية والعلوم المتعلقة بها (البلاغة...) وقد وجدت العربية لغة القرآن مكانتها في الجامعات إلى جانب اللاَتينية. " إن المعرفة المعمقة باللَغات الكلاسيكية كالعربية والفارسية، ارتكزت على فكَ رموز المصادر الأولية، وبالتالي فقد لزم قبل كل شيء تصنيف هذه المخطوطات وطبع النصوص وترجمتها والتعليق عليها. إن عملية التدرَب المسبقة والطويلة والصعبة التي تطلبها تعَلم اللَغة وخاصة اللَغات الشرقية والتمرَن على كتابتها، كل ذلك يتطلب وقتا هائلا، وكان لا بدَ من أهل الاختصاص أن يكرسوا له حياتهم".[15]

---

(13) المرجع نفسه، ص ص 135-136.

(14) ماكسيم رودنسون، "الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا"، ضمن مجموعة مؤلّفين، "الإستشراق بين دعاته ومعارضيه"، ترجمة وإعداد هاشم صالح، بيروت، دار الساقي، ط.1، 1994، ص 44.

(15) ماكسيم رودنسون، " وضع الإستشراق المختصَ بالإسلاميات، مكتسباته ومشاكله"، ضمن مجموعة مؤلّفين، "الإستشراق بين دعاته ومعارضيه"، ترجمة وإعداد هاشم صالح، بيروت، دار الساقي، ط.1، 1994، ص ص 85-87

واعتبرت اللّغة العربية وإتقانها ودراستها بشكل علمي المفتاح لفهم لغة القرآن ولفهم الفضاء الإسلامي وثقافته وليست صدفة انصراف الدّارسين الأوروبيين إلى الاشتغال بشكل جدي والانكباب على تعلّمها ، وان معرفة الإسلام رهين بمعرفة لغة قرآنه. ولا بد من الإشارة هنا إلى التميّز الألماني في مجال علم اللغات والذي كان لعلمائه دراسات لا يمكن تجاوزها فكان بحق تفرّد ألماني في هذا المجال.

3- في نقد الدراسات الاستشراقية حول الاسلام

لقد واجهت الدراسات الإسلامية المنجزة من قبل الباحثين الغربيين جملة من الانتقادات. فالعلاقة بين المسيحية والإسلام علاقة تاريخية مركبّة ، علاقة هي في الوقت نفسه تجمع بين منافسة وعداء وعطاء.

إنّ الإتهام الأبرز والأقدم والأكثر شيوعا ، ان هذه الدراسات التي إهتمت بالإسلام كانت الأداة للتغلغل الإستعماري الأول في أرض الإسلام " وفي بعض الأحيان نجد أنّ التوسع المهيمن للغرب قد اثار دراسات وأبحاثا تهدف إلى تنظيم الإدارة الاستعمارية وترتيب شؤون الإستعمار حتى ولو حاولت أن تتخذ صفة الموضوعية ، ثم كانت تتضح بشكل غامض من النظرة التبخيسية والتصغيرية للإنسان المحلي أي المستعمر وهذا شيء ينبغي أن يُقال."[16]

يضاف إلى هذه المركزية الأوروبية والنظرة المثالية للحضارات الأوروبية (يونانية ، رومانية) وبالنظرة السلبية لثقافاتهم. إنّ نظرة الآخر المليئة بالعيوب والنقائص تحمل في طياتها أيضا سهولة الوقوع في الإيديولوجيا ، فلم يكتفي هؤلاء الدارسين من تنصيب المجتمع الأوروبي والحضارة الأوروبية كنموذج كوني أعلى وصالح للمجتمع[17] ، بل كانت الأولوية للنموذج الأوروبي ولتفوقه فنتج عنه نوع من المثالية بما في ذلك المثالية الدينية والتي ستفضي بدورها إلى نوع من الأحكام المسبقة التي وضعها الأوروبيون حول الإسلام والمسلمين ورسخت في أذهانهم. كما وُجهت لهؤلاء الباحثين انتقادات همت ظاهرة الإنتقائية والإختزالية ، مثل أن تختزل الإسلام وتفسر ظهوره بالعامل الاقتصادي وحده باعتبار هذا الأخير الحاسم والمحدد ، أو هناك من يولي أهمية للجانب الاجتماعي ، أو سياسي دون أخذ مجمل هذه العوامل بعين الاعتبار.

إلى جانب ما تقدم هنالك اتهام أيضا بالتركيز على التاريخ الإسلامي الكلاسيكي ، فهذه الفترة التي بدت لهم أكثر إشعاعا وإشراقا من غيرها. فدراسة الماضي هي مرحلة ضرورية لفهم الحاضر لكن أهملوا في نفس الوقت فترات تاريخية أخرى أكثر حداثة من حيث الزمن.

---

(16) مجموعة مؤلّفين ، الإستشراق بين دعاته ومعارضيه ، ترجمة وإعداد هاشم صالح ، بيروت ، دار الساقي ، ط.1 ، 1994 ، ص33.

(17) ماكسيم رودنسون ، مرجع سابق ،ص ص 49 -50.

إن دراسة الإسلام من قبل الباحثين الغربيين قد أخذت في أحيان كثيرة مسافة نقدية ، وهذه المسافة هي ناتجة عن " قانون التجاوز والاحتفاظ ، إنّه تاريخ ثورات وتحولات كبرى للإرث إغريقي ونفي للمسيحية مع الإصلاح الديني ، ممّا أدَى إلى ظهور مناخ فكري جديد ، وميلاد تطلعات جديدة ، وبذلك امتلكت أوروبا القدرة على النفي الذاتي المستمر وإعادة البناء بينما تاريخ الإسلام هو تاريخ اتصال وحنين ومحاولة استرجاع لذاكرة الماضي ".[18]

هذه النزعة المحافظة تتمثل في الخشية من التغيير والارتياب فيه والخوف منه وكل نزعة للوضع القائم تبدو مقلقة وتُرفض فورا ، ذلك أن آلية الرقابة تتحرك مباشرة وتُجبر الباحث على إنكارها. لقد تبلورت منذ قرون في أوروبا وتحديدا في الغرب مفاهيم أساسية للبحث العلمي والتي ساعدت في ظهور أعمال ودراسات قيمة ، فالباحث المنتمي للبلدان الاسلامية ، الذي يريد أن ينخرط في أي مجال من مجالات الدراسات العربية ينبغي عليه أن يطلع على ما تمَ إنتاجه من قبل الباحثين الغربين ، كما نجد هؤلاء الباحثين (العربي ، المسلم) مضطر للعودة إلى كتب المستشرقين وإلى عدد كبير من المخطوطات التي حققوها والتي من بينها المتعلق بفقه اللغة أو الفيلولوجيا ، العملية التي تطلبت مجهودا كبيرا من قبلهم فمن المستحيل أن نكتب تاريخ الشعوب دون معرفة لغتها ودون أن تتموضع في قلب ثقافتها ، فتعلَم اللَغة يتطلب وقتا طويلا لإتقانها فهو مجال مليء بالعراقيل والعقبات ، فاللَغة فيه وعرة ، والكتابات متعذرة على الفهم[19].

لقد كانت هناك رغبة من قبل المستشرقين لتوسيع مجال الاهتمام والإنفتاح على حضارات أخرى عاملا مهما في هذا الخصوص. كما ينبغي أن نشير هنا إلى تأثير العلاقات العلمية المحسوسة ، التي أنشئت مع الشرق الإسلامي ، فقد أصبحت العلاقات أكثر سهولة وقوة وكثافة ضمن ظروف التفوَق المتزايد يوما بعد يوم للغرب على الشرق على الصعيد الاقتصادي والعسكري والسياسي.

إنّ النّقد السلبي الموجَه للدراسات الإسلامية لا يمكن أن تجعلنا ننسى الحقيقة أن أوروبا هي التي اتجهت إلى أقصى حد في تطبيق المناهج العلمية وطبقت ذلك على الدراسات اللاهوتية أو الدراسات الإسلامية لكننا وفي مجتمعاتنا العربية الإسلامية جعلتنا نحكم على هذا النقد الموَجه للعقائد وللشعائر الإسلامية بمثابة السقوط في الموقف الموالي للغرب ، أي الموقف الإستعماري المهيمن. وإن تجاهلنا لهذه الدراسات يقابله إهتمام معرفي متزايد

---

(18) بلقزيز عبد الإله ، عبد العالي معزوز ، " الإسلام والغرب بين الوهم والواقع من منظور هشام جعيط " ضمن تأليف جماعي ، "التاريخ والتقدم: دراسات في أعمال هشام جعيط ، ندوة فكرية" ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط.1 ، 2011 ، ص.91.

(19) ماكسيم رودنسون ، مرجع سابق ، ص 45 .

بالإسلام وحب إطلاع أوروبي وهذا ما عبَر عنه عديد المستشرقين (ماكسيم رودنسون ، كلود كوهيين ، وبارنار لويس) وهي حبّ المعرفة.

4- بعض النّماذج لدراسات المستشرقين حول الإسلام بالبلاد التونسية.

حظيت منطقة المغرب العربي بدراسات هامة من قبل المستشرقين الأوروبيين ، وبخاصَة من قبل الباحثين الفرنسيين باعتبار أنّ المنطقة قد وقعت تحت الاحتلال بشكل تدريجي. بالرّغم من أنّ الاهتمام بمناطق شرقية بعيدة كالهند والصَين قد كان بشكل مبكّر جدًا ، ولكن الاعتقاد السائد لدى العامة من بلدان المغرب الإسلامي أنّ المناطق أقصى الشرق الآسيوي للعالم الإسلامي لم تحظ بالاهتمام نفسه. وبالمناسبة فإنَ الحديث عن المغرب الإسلامي من قبل المستشرقين ، تدعونا إلى التفكير في نمط خاص من العلاقة بين الإثنين باعتبار عامل القرب بين المنطقتين ، ومن منظور تاريخي ، يمتدّ الحضور العربي والإسلامي في الأندلس بإسبانيا لمدة ثمانية قرون قد يجعل من مجمل هذه الدراسات فيها خصوصية وتميَز.

كانت النظرة الإستعمارية في هذه الدراسات الإسلامية بمنطقة المغرب الإسلامي حاضرة ولو أنها تبدو بديهية في مجتمع مستعمر ، تغلَب على أفكار مؤرخيه ضعف منسوب الحيادية في مثل هذه المواضيع ، وفهم وتأويل أحداث الماضي. لكن إلى أي مدى كان تأويل الماضي وفهمه وبخاصة الحضور الإسلامي وبالبلاد التونسية وبلدان المغرب ، تأويلا موضوعيا من قبل المستشرقين.

يأتي في هذا السياق موقف غبريال مدينا **(Gabriel MEDINA)** حيث يُؤكّد على أنّ الحديث في مثل هذه المسائل ليس بالأمر الهيَن ، بل يتطلب الأمر إلماما كبيرا بتاريخ المنطقة الواقعة تحت الدَرس والظروف التي دخل فيها أي دين إلى هذا البلد أو ذاك.

بدأ اعتناق النصرانية في أواسط القرن الثاني ميلادي انتشرت بشكل سريع خلال القرن الثالث ميلادي وبخاصة لدى سكّان المدن وضمن شريحة اجتماعية مدينية ، إلاّ أنّ الباحثين لا يملكون وثائق في هذا الموضوع التي يُمكن أن تُؤرخ لهذه الفترة ، إلاّ أن هناك من يعتبر كثرة الكنائس الموجودة قادرة أن تبرهن على أهمية دخول عدد كبير من سكان البلاد التونسية في هذا الدَين الجديد.

4-1-الحضور المسيحي في البلاد التونسية

حلَت الكنيسة المسيحية محل سلطة الإمبراطورية " ويعتقد جل المؤرخين الغربيين من المستشرقين أن الدعوة إلى الدَين المسيحي الجديد بدأت أثناء القرن الثاني ميلادي داخل جماعات شرقية في المدن الساحلية ، ثمَ نقلها الجنود إلى المدن الداخلية الصغيرة ، وقوَة الإمبراطورية في أوجها واستغلال شمال إفريقيا على أشده... وممّا لا شكّ فيه هو أنّ المسيحيين كانوا آنذاك يُعادون سلطان روما وأن الأساقفة المغاربة كانوا يميلون إلى

الاستقلال ويرفضون سيطرة أسقف عاصمة الإمبراطورية عليهم. "[20]

وقد كثرت المناقشات حول اعتناق التونسيين للمسيحية ، وهناك من اعتبر اعتناقها هو تعبير عن معارضتهم للسلطة الرومانية. وقد تم العثور على عديد الكنائس والنقوش المسيحية بالقرب من مدينة قرطاج ممَا يطرح تساؤلات عديدة حول علاقة التمدن بانتشار المسيحية.

لقد اعتنق المسيحية "الأغنياء وسكان المدن قبل سكّان الأرياف... كما كان للدين المسيحي تأثير كبير في معتقدات البربر ، فكنيسة قرطاج بقيت قوية ومنظمة بالرَغم من كل ِالإنشقاقات (الحركة الدوناتية) التي ظهرت خلال القرن الرّابع ميلادي وظهور الآرينية. في فترة الوندال وجدت الكنيسة الكاثوليكية انطلاقة جديدة للحضور البيزنطي بالبلاد التونسية". [21]

لا شك أنّ اعتناق المسيحية أثّر بشكل عميق على الثقافة الشعبية ، تاركًا وراءه ممارسات ومعتقدات متجذرة في تلك الفترة. وهذا التأثير طبيعي ومنطقي ، فالتبادل الثقافي والتثاقف هما سمتان أساسيتان من سمات الحضارة الإنسانية وتطورها.

يؤكّد الباحثون ، بمن فيهم المستشرقون ، أنّ اعتناق المسيحية لم يكن كافيًا لتحقيق النجاح المنشود في شمال أفريقيا. لقد كان عدم القضاء على الآثار البونيقية خطأً فادحًا ، إذ سمح بتغلغل الذهنية الشرقية في العقول ، خاصة في المناطق الريفية. وممّا زاد الطين بلة ، أنّ النصرانية ، بدينها الشرقي ، شكّلت حاجزًا ثقافيًا قويًا أمام العقلية الغربية. يقول جلبار شارل بيكار "إنّ تأثير قرطاج هو السَر فيما يشعر به البربر من ميل نحو الشرق رغم جوارهم لأوروبا."[22]

أولى هذه التساؤلات وأهمها لماذا انقرضت المسيحية من البلاد التونسية بهذه السرعة وانتصر الدين الإسلامي على أراضيها ؟

يتساءل **مدينا** " كيف لدين وُجد لفترات طويلة أن يُمحى تماما من هذه البلاد "[23]

ونفس التساؤل أبداه **قوتيي**[24] GAUTIER Emile-Felix " كيف إنتقل المغرب من

---

(20) العروي عبد الله ، مجمل تاريخ المغرب ، الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي ، ط.3 ، 2016 ، ص 66.

(21) BRUNSCHVIG R., et All. « La vie religieuse», dans *initiation à la Tunisie*, Paris, Maisonneuve, 1950, p 149 .

(22) العروي عبد الله ، مرجع سابق ،ص 86 .

(23) MEDINA Gabriel, « Le christianisme dans le nord de l'Afrique avant l'islam », *Revue Tunisien*, Tunis, 1901, p 27

(24) إميل فلكس قوتي (GAUTIER Emile-Felix)، 1864-1940 ، هو جغرافي بالأساس ، لكن له عديد المؤلفات المهتمة بالتاريخ وبالاتنوعرافيا وأيضا بالفلولوجيا. درس بكلية الآداب بالجزائر العاصمة .

حضارة المسيحية إلى الإسلام."[25]

وقد ألحَ قوتيي في تحليله إلى ميل البربر لكل ما هو قادم من الشرق تُفسر في نظره اكتساح الفتح العربي للمغرب ، وهذا يعني أن المشكل ليس قائما كما يرون في المسيحية في حد ذاتها ، بل في أسباب أخرى عميقة تتعلق بذهنية البربر التي تختلف عن الذهنية الغربية ، فهناك أسباب تغافل عنها الباحثون " وهي الأسباب الوراثية والنفور الغريزي للأهالي من الأوروبيين ، فقد إستقبل السكان الأصليون لمنطقة المغرب العربي القادمين من مكة بكل ترحاب وإلاّ كيف تمكّن الإسلام وفي وقت قصير من هدم ما جاءت به المسيحية من نمط عيش إجتماعي وديني."[26]

وقد شدد **قوتيي** على الجانب الوراثي الذي غرسه الفنيقيون القادمون من الشرق ، حيث عرَج عليه بشكل مختلف من جانب تشكل مسارات الشعوب وتقدمها ، كما أورد في سياق تحليله لهذه المسألة مجموعة من المقارنات بين شعوب شمال إفريقيا وسكان قارة أمريكا الجنوبية ، " فشعوب هذه الأخيرة عند التقائهم والتلاقح الذي حصل بين الهنود السكان الأصليين والإسبان القادمين من أوروبا ، قد أعطى نتائج ضعيفة في انتقال الجينات الأوروبية إلى الرجل الهندي ، والأمر نفسه حصل مع البرتغاليين ، لكن من غير المعقول ونحن نتحدث عن نظرية الضعف البيولوجي التي لا تجد لها ما يسندها علميا أن تُقدم لنا عمالقة في تاريخ المنطقة من أمثال حنبعل والقديس أغسطين."[27]

4-2- دخول الإسلام لمنطقة المغرب العربي

حملت الدراسات الإستشراقية موقفًا إشكاليًا تجاه دخول الإسلام ، معتبرة إياه استفزازًا حقيقيًا ، نظراً لقربه الجغرافي من المسيحية كما هو الحال بالبلاد التونسية. ورغم ذلك ، استطاع الإسلام في تونس أن يحقق نجاحات بارزة ، تميزت بالتفوّق الثقافي والاجتماعي ، دون الاعتماد على القتال العسكري أو الهيمنة السياسية.

وبقطع النظر عن البلاد التونسية فإنّه ومنذ القرن السابع ميلادي وإلى حدود القرن السادس عشر مثّل الإسلام تهديدا حقيقيا بالنسبة للمسيحية ، فهي في ذاكرة هؤلاء مجموعة من الوقائع والأحداث التي بقيت عالقة في الذاكرة. " فبعد وفاة محمد (صلى الله عليه وسلم) سنة 632 ميلادي ، تنامت في البداية سيطرة الإسلام العسكرية ثُم الثقافية والدينية تناميا

بديوي ، عبد الرحمن. "جوتييه". موسوعة المستشرقين. موسوعة شبكة المعرفة الريفية ، 1992

(25) GAUTIER E F., « Considération sur l'histoire du Maghreb», *Revue Africaine* , n° 68 ,1928, p72 .
(26) MEDINA Gabriel, Op.cit, p 27 .
(27) GAUTIER E F., Op.cit, p 64.

هائلا. وسقطت فارس ثم سوريا ومصر أولا ثم شمال إفريقيا في أيدي الجيوش الإسلامية. وفي القرنين الثامن والتاسع فتحت إسبانيا وصقلية ، وأجزاء من فرنسا ، وبمجيء القرنين الثالث عشر والرابع عشر كان حكم الإسلام قد توغَل شرقا حتى الهند وأندونيسيا والصين. لم يكن بوسع أوروبا أن تقدَم إجابة سوى الخوف والشعور بالرَهبة. ولم يكن لدى المؤلفين المسيحيين الذين شهدوا الفتوحات الإسلامية غير اهتمام ضئيل بعلم المسلمين... فبالنسبة لأوروبا كان الإسلام رجّة مأساوية دائمة وحتى نهاية القرن السابع عشر كان الخطر العثماني متربصا بأوروبا ممثلا بالنسبة للحضارة المسيحية تهديدا دائما. ومع مرور الزَمن إمتصّت الحضارة الأوروبية هذا الخطر وأحداثه العظيمة"[28] ، هذا بشكل عام ، أمَا الخاص والذي يهم منطقة المغرب الإسلامي وتحديدا البلاد التونسية فالأمر لا يخرج كذلك عن مجال الصدمة بالنسبة للمستشرقين والباحثين الفرنسيين. كما يُشير **برانشفيك**[29] BRUNSCHVIG Robert أنّ الحضور العربي الإسلامي في البلاد التونسية حمل لواء نشر الإسلام في منطقة المغرب الإسلامي منذ القرن السابع ميلادي وهي في هذا الجزء وريثة الإمبراطورية الرومانية"[30] ، وأنّ الفتح تطلَب زمنا طويلا نصف قرن من الصراع على السيطرة على القيروان والتواجد بها بشكل نهائي " بسبب جهل العرب الفاتحين بالأوضاع الدَاخلية للبلاد التونسية ومنطقة المغرب العربي عموما على النقيض تماما من منطقة الشرق العربي الذي كانوا يعرفونه تماما وبشكل كافي منذ قرون عديدة قبل فتحها مثل الشَام والعراق وفارس ثم توقفت حركة الفتح أثناء الفتنة الكبرى لتعود مع معاوية سنة 665م. جاء عقبة ، وكانت خطته أن لا يتوجه إلى الشمال اختار مدينة القيروان ولم يتجه شمالا ليُحاصر المدن البيزنطية الحصينة ، بل اتجه شرقا وواصل فتوحاته هناك إلاَ أنه وأثناء عودته إلى القيروان إعترضه كسيلة حيث توفي سنة 683 م ، وأُسترجعت القيروان ، وحارب حسان الرَوم طويلا ، ثم تجمَع البربر تحت قيادة الكاهنة بتحالف مع البيزنطيين "ثَم أعيد الهجوم من قبل حسان بن نعمان ، وبإنهيار المقاومة نشأ وضع جديد جنى ثماره موسى بن نصير"[31].

يُبيّن **برانشفيك** " أنّه ومع إستقرار العرب المسلمين تمكنوا في مدة وجيزة من السيطرة

---

(28) سعيد إدوارد ، الإستشراق المعرفة ، السلطة ، الإنشاء ، نقله للعربية كمال أبو ديب ، بيروت ، مؤسسة الأبحاث العربية ، ط.7 ، 2005 ، ص 89.

(29) روبار برانشفيك (BRUNSCHVIG Robert) (1901-1990) ، يعدّ من أبرز المؤرخين الفرنسيين المختصين في تاريخ العالم الإسلامي بوجه عام والمغرب العربي بوجه خاص ، حذق اللغة العربية ثم للتخصص في التاريخ الإسلامي ، أهم أعماله أطروحته الضخمة التي كان موضوعها العهد الحفصي.

(30) BRUNSCHVIG R , « La Tunisie au moyen Âge », dans *initiation à la Tunisie*, Paris, Maisonneuve, 1950, p 73.

(31) العروي عبد الله ، مرجع سابق ، ص 124.

وفتح المنطقة الغربية وصولا إلى إسبانيا ، هذه الوضعية ستغَير من منطقة المتوسط ومن المسيحية الغربية لقرون عديدة."[32]

يستنتج قوتيي أنّ انتشار الإسلام في هذه المنطقة يعود " إلى التعاطف والتشابه الموجود بين البدو العرب القادمين من شبه الجزيرة العربية والبدو المحليين ، إذ يلتقيان ويشتركان فيما بينهما في طريق العيش والمشاعر العميقة فالتعاطف الموجود بينهما أقوى من الإختلافات وفي قصَة الكاهنة ما يُشير إلى أنها لعبت دورا لا واعيا ، حصل هذا في الوقت الذي كان فيه سكان المدن يجربون فوائد حكم الخلافة الذي كان يضمن لهم سلطة نظامية وإدارة وهدوءا نسبيا أي الأشياء التي لا تقوم بدونها أية حياة مدينية."[33]

اعتمد **قوتيي** في تحليله على الدور المسند للبدو ومدى إنسجامهم مع البدو المحليين ، هذا التفسير يحمل في طياته نظرة تحقيرية ومنطق استعلاء وهي قراءة للتاريخ وللحضور الإسلامي بالمنطقة من باب حاجة القوى الإستعمارية ، ومن باب التأويل المصلحي للأحداث حتي وإن كان ذلك على حساب الموضوعية العلمية ، وهذا ما ورد في تحليل قوتيي وفي نظريته التفسيرية للفتح العربي الإسلامي لبلدان المغرب الذي يذهب فيه إلى حدود قصوى ، مُؤكّدا " أنّه من حسن حظ بلدان المغرب أنه أيّا كان الغزاة المحتلون ، فإنهم يبقون الأسياد إلى أن يقع طردهم من قبل المحتلين الجدد ، حيث لعب الغزو الأجنبي دورا مهمًا في تاريخ المنطقة فالغزاة يصبحون هم القادة... ونحن كأوروبيين هنا تكمن مصلحتنا".[34]

من منظور عبد الله العروي ، تعتمد نظرية قوتيي على عنصرين أساسيّين: الأول ثقافي والثاني اقتصادي ، فعلى المستوى الثقافي " يُفرَق قوتيي داخل المدن بين البربر الذين إعتنقوا الثقافة الرومانية والبربر الذين حافظوا على ثقافتهم البونقية. وعلى مستوى نمط العيش يُفرَق بين المزارعين الحضر الذين تنصروا ، والبدو المتأثرين بالدعوة اليهودية في القرون الأخيرة من الحكم الوندالي والبيزنطي. إعتمادا على هذا التقسيم يفسر قوتيي ، أحداث كلَ مرحلة من مراحل الفتح. يقول أنّ الحضر (أي سكان المدن والمزارعين) قاوموا العرب تحت قيادة كسيلة ، لكنهم كانوا في الأغلب بونيقيين ، أي شرقيي الأصل ، وبالتالي قابلين للإندماج في حضارة العرب. أمَا الأقلية الرومانية الرَافضة لأي إدماج ، فإنها كانت تحنَ إلى الهدوء والسكينة. فبمجرد ما إنهزم الجيش البيزنطي ، مال الحضر من جرَاء دوافع مختلفة لكنها متفقة في النتيجة إلى الخضوع للغالب ، شريطة أن يضمن لهم الأمن أما البربر

(32) BRUNSCHVIG R, Op.cit, p 73.
(33) GAUTIER E. F., Op.cit, p 64.
(34) Ibid., p 67.

البدو فإنهم كانوا منذ البداية ميالين إلى مسايرة العرب لأنهم بدو مثلهم أسلم قسم منهم على التوَ وإستمرّوا على عاداتهم في النهب ومهاجمة المدن. لكن عندما أراد العرب استمالة الحضر بالعودة إلى النظام وبكف البدو عن النهب ، إرتدّ هؤلاء بعنف فكانت الثورة العارمة اليائسة التي قادتها الكاهنة ، وهكذا كانت كل جماعة من السكان تتجاذبها أغراض متناقضة. كانت العناصر البعيدة ثقافيا عن العرب تميل إلى قبول نظامهم الجديد ، والعناصر الرّافضة لكلّ نظام قريبة من العرب ثقافيا. كان كل شيء إذن في صالح المسلمين."[35]

إذا بعد سنة 711م ، أصبحت القيروان عاصمة المغرب الإسلامي وبدأ مسار جديد للحضور العربي الإسلامي بالبلاد التونسية وقبل كل شيء دولة عربية إسلامية ، فالفتح كان إعترافا بسيادة دولة الخلافة ، وكانت مدينة القيروان أحد نقاط إشعاعها.

كانت المسألة منذ البداية سياسية أكثر منها دينية ، أي كيف سيحكم العرب المغرب وليس كيف سيعبد المغاربة خالقهم وهذا ما يفسر عنف المقاومة في البداية وسهولة إعتناق الإسلام في النهاية. ينهي برنشفيك قوله " أنّ المحاولات الأولى لأسلمة القبائل المحلية كانت مُخيبة للآمال ، لكن عندما تمت السيطرة العربية بشكل قوي وبشكل مُكثّف ، وتم ِالتعريب بالنسبة لسكّان البربر ، في هذا الظرف تمت الأسلمة في عشرين سنة بطريقة واسعة وحاسمة ، وقد صمدت المجموعات اليهودية داخل المراكز الحضرية وبقيت كذلك إلى يومنا هذا ، على العكس تماما من المجموعات المسيحية التي واجهت صعوبات جمّة في البقاء".[36]

كما أنّ تعاليم الإسلام ومحتواها لم تكن تصل بعمقها ومقاصدها ، فالأهالي من التونسيين كانوا يجهلون ما كان محرّما في القرآن على غرار الخمر ، أما المسائل التشريعية الواردة في القرآن فإنّ عددا كبيرا من السكّان المحليين من التونسيين أو القبائل في تلك الفترة ولمدة طويلة كانوا يجهلونها أو يتجاهلونها لفائدة الأعراف المتداولة لدى القبائل ، والمرتبطة أساسا بعادات الناس وتقاليدهم ، بل هناك من وجد في هذا الدّين الجديد فرصة لتأكيد إستقلاليتهم.

وحتى اللّغة اللاّتينية خلال القرن الثامن ميلادي بقيت موجودة وستتلاشى مع الزمن خلافا للّهجة البربرية ، ولن تبقى إستعمالات اللّغة اللاتينية إلا في المجالات الثقافية مثل تراتيب الدفن وبعض المنقوشات على المسكوكات والأنصاب ، وآخر أثر هذه اللغة لوحظ بمنطقة قفصة (جنوب البلاد التونسية) خلال القرن الثاني عشر ميلادي."[37]

ومثله مثل مادينا وقوتيي ، يُذهل برانشفيك بهذه القطيعة مع اللّغة اللاّتينية ومع

---

(35) العروي عبد الله ، مرجع سابق ، ص 127.

(36) BRUNSCHVIG R., Op.cit, p 76.

(37) Ibid., p 77.

المسيحية التي طبعت لعدَة قرون من تاريخ البلاد التونسية. يتحسر هؤلاء المستشرقون وغيرهم لإخفاق روما والمسيحية ويذهلون لنجاح الإسلام ، فعملية المرور من اللاتينية إلى العربية ومن المسيحية إلى الإسلام هي فضيحة من وجهة نظرهم. لكنهم ينسوا أنهم إنتقلوا من " حضارة رومانية هرمة محبطة إلى حضارة إسلامية فتية وقوية ". [38]

كما بَيّنها المستشرقون بطرق مختلفة ، منها ما هو متعلَق بالبدو الرَحل من العرب الذين انتشروا في ربوع البلاد ومنها ما هو مرتبط بالعقلية العربية ، وبحسب رأيهم اجتمعت كل هذه المعطيات ، لتُقوض الحضور اللاتيني المسيحي وتستقبل الوجود الإسلامي.

يمكننا ملاحظة أنّ الحضور العربي الإسلامي في الوقت الراهن حقّق نجاحا ملموسا ، بينما كان النجاح في الفترة التي تلت الفتح مباشرة خلال القرنين السابع والثامن الميلاديين نسبياً ومحدوداً ، وشابته تكاليف واضحة.

فقد أسلمت وبشكل كامل المنطقة المغاربية بعد قرون وهي بحسب المفكر المغربي عبد الله العروي منها أولا إرادة الإستقرار في البلاد عند الفاتحين العرب... ، وهذا ما قوَّى مركزهم بكيفية ملحوظة. ومنها قلة المستوطنين وبالتالي عدم الحاجة إلى طرد عدد كبير من السكّان الأصليين ، ومنها عدم وجود كنيسة مستقلَة ومنها سرعة التّحرر من التبعية لدولة بعيدة إستغلالية."[39]

إنّ قراءة التاريخ الإسلامي من قبل المستشرقين الفرنسيين تستدعي إعادة نظر ونقاش مستمرين ، حيث استفادت أوروبا المسيحية بشكل واضح من الحضارة العربية الإسلامية ، لا سيما من خلال الرافد الأندلسي. لذا ، ينبغي أن تكون هذه القراءة خالية من تحيزات التفوق الأوروبي أو الاستثناء ، إذ أنّ مثل هذه الأفكار تجاوزها الزمن مع بروز مناخ فكري جديد وتطلعات متجددة. فكل مرحلة تاريخية تمثل تطوراً علمياً وثقافياً متجدداً ، ولا توجد منظومة فكرية ثابتة تبقى على حالها دون تغير.

خاتمـــة:

أنبنى تناول المستشرقين والدّارسين للإسلام في البلدان المغاربيّة عموما وللبلاد التونسية بشكل خاص على خصوصيّة القرب الجغرافي لهذه البلدان من أوروبا ومعرفتهم الجيّدة للمنطقة وبشعوبها. لذلك كان هذا التحسّر الشّديد لدى عديد الباحثين في خروج المسيحيّة من بين أيديهم واستبداله بالإسلام ، لمسنا ذلك بشكل واضح وجلي لدى كلّ من "مدينا" و"قوتيي" ، وكأنّنا هنا أمام محاسبة لمسار التاريخ ، وتبقى مثل هذه الأسئلة مطروحة من قبل المستشرقين والباحثين إلى اليوم ، عن مُجمل العوامل التي ساعدت على

(38) العروي عبد الله ، مرجع سابق ، ص 130.

(39) المرجع نفسه ، ص132.

حلول الإسلام بهذه الرّبوع ، رغم اقتناعهم بأنّ هنالك لحظات انعطاف أو لحظات قطيعة في التاريخ التي تحمل معها تغيّرا حاسما على مدى طويل ، وربّما أدركوا أنّ العامل الدّيني في هذه المنطقة لعب ويلعب إلى الآن دورا مفصليّا في انتمائه وتحديد هويّته.

غير أنّ ما يُلفت الانتباه أيضا في هذه الدّراسات الإستشراقيّة الخاصّة بمنطقة المغرب بما في ذلك تونس قد مسّت فترة الإسلام المُبكّر أو الفتح (القرن السابع والثامن والتاسع ميلادي) ، وهي فترة اتّسمت بنُدرة الوثائق والمعلومات حول دخول الإسلام لهذه المنطقة ، ممّا يجعل إمكانية التّأويل وطرح الأسئلة واردة من قبل الباحثين والعودة باستمرار لمثل هذه القضايا ، لأنّها قضايا فكرية دائما فيها من يريد أن يدلو بدلويه.

وما يُمكن استنتاجه أيضا أنّ هذه الكتابات قد اقتنعت بأهميّة حضور وقوّة الرّافد الإسلامي الذي أصبح الأداة المعبّرة عن شخصيّة القاطنين للبلدان المغاربية.

إنّ النظرة الإستشراقية للإسلام قد شهدت تطورات ملحوظة على مرّ العصور ، حيث لم تبق هذه النظرة ثابتة ، بل انتقلت عبر مجموعة من التحوّلات الفكرية والثقافية التي تأثّرت بسياقاتها التاريخية المتعدّدة. فعند محاولة فهم مواقف المستشرقين الفرنسيين والغربيين بشكل عام تجاه الإسلام ، يتعيّن علينا تناول تلك المواقف في إطارها الزمني والاجتماعي ، إذ إنّ هذه الفهم يتطلّب منّا الابتعاد عن العواطف وتحليلات التحامل التي كانت تسيطر على كثير من الرؤى السابقة. إنّ تلك التحيزات والاعتقادات المسبقة تعتبر بمثابة عوائق رئيسة تحول دون تقدم العلوم الإنسانية ، كما أنّها تعيق قدرتنا على الوصول إلى حقائق معرفية يمكن أن تتجاوز تلك الرواسب التاريخية التي تمّ ترسيخها في الذاكرة الثقافية منذ العصور الوسطى وحتى الآن. ومع ذلك ، لا يمكن أبدا تجاهل القيمة العلمية للأعمال التي أنجزها هؤلاء المستشرقون فيما يتعلق بدراستهم للإسلام ، حيث أنّ هناك ثروة من المعلومات والمعطيات التي تم تجميعها على مدى قرون وتعتبر ضرورية لفهم أفضل للظواهر الإسلامية. هذا يجعلنا نؤكّد على أنّ أعمالهم ليست مجرد بقايا يمكن الاستغناء عنها ، بل هي إرث علمي يستحقّ الدراسة والتّمحيص ، كما أنّنا لا زلنا بحاجة ماسة إلى المنهجيات العلمية التي انتهجها هؤلاء الباحثون ، خاصة في ظل غياب مناهج بحثية خاصة بنا ، ممّا يتطلب منا إعادة تقييم تلك الإسهامات والتفاعل معها بطريقة نقدية وبناءة ، بهدف إثراء المعرفة الإنسانية وتعميق الفهم الإسلامي المعاصر.

- **المصادر:**

–BERNARD L., *Europe –Islam : Actions et réactions,* Paris, Gallimard, 1992

–BRUNSCHVIG R., « La Tunisie au moyen Âge », dans *initiation à la Tunisie,* Maisonneuve, Paris, 1950, pp : 73-97

–BRUNSCHVIG R., et All. « La vie religieuse», dans *initiation à la*

Tunisie, Maisonneuve, Paris, 1950, pp : 149-187
– GAUTIER E F., « Considération sur l'histoire du Maghreb», *Revue Africaine*, n°68, 1928, pp : 47-73
– MEDINA Gabriel, « Le christianisme dans le nord de l'Afrique avant l'islam », *Revue Tunisien*, Tunis, 1901, pp : 56-68

▪ المراجع باللّغة العربيّة:

— بديوي ، عبد الرحمن. "جوتييه". **موسوعة المستشرقين**. موسوعة شبكة المعرفة الريفية ، 1992

— بلقزيز (عبد الإله)، وآخرون ، **التاريخ والتقدم: دراسات في أعمال هشام جعيط: ندوة فكريّة ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ط.1 ، 2011.**

— بلقزيز (عبد الإله)، والصادقي (أحمد)، " الإسلام والغرب بين الوهم والواقع من منظور هشام جعيط" ، ضمن تأليف جماعي ، **"التاريخ والتقدم: دراسات في أعمال هشام جعيط ، ندوة فكرية"** ، بيروت ،مركز دراسات الوحدة العربية ، ط.1 ، 2011 ، من ص:74 إلى ص:94

— سعيد إدوارد ، **الإستشراق المعرفة ، السلطة ، الإنشاء ،** نقله للعربية كمال أبو ديب ، بيروت ، مؤسسة الأبحاث العربية ، ط.7 ، 2005.

— العروي عبد الله ، مجمل تاريخ المغرب ، الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي ، ط.3 ، 2016.

— لبيب طاهر ، **صورة الآخر: العربي ناظرا ومنظورا إليه** ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط.2 ، 2008.

— لويس (برنار)، "حالة الدراسات المتعلقة بالشرق الأوسط" ، ضمن كتاب "**الإستشراق بين دعاته ومعارضيه**" ، ترجمة وإعداد هاشم صالح ، بيروت ، دار الساقي ، ط.1 ، 1994 ، من ص:131 إلى ص:152

— ماكسيم رودنسون ، " الدراسات العربية الإسلامية في أوروبا" ، ضمن مجموعة مؤلّفين ، "**الإستشراق بين دعاته ومعارضيه**" ، ترجمة وإعداد هاشم صالح ، بيروت ، دار الساقي ، ط.1 ، 1994. من ص:43 إلى ص:83

— ماكسيم رودنسون ، " وضع الإستشراق المختصّ بالإسلاميات ، مكتسباته ومشاكله" ، ضمن مجموعة مؤلّفين ، "**الإستشراق بين دعاته ومعارضيه**" ، ترجمة وإعداد هاشم صالح ، بيروت ، دار الساقي ، ط.1 ، 1994 ، من ص:85 إلى ص:97.

— مجموعة مؤلّفين ، **الإستشراق بين دعاته ومعارضيه** ، ترجمة وإعداد هاشم صالح ، بيروت ، دار الساقي ، ط.1 ، 1994.

— **الموسوعة العربية** ، الآداب اللاتينية ، أعلام ومشاهير ، المجلد 10 ، دمشق ، 2004